

الموروث الثقافي لمنطقة الجنوب الغربي الجزائري عند عبد القادر خليفي
(قراءة في كتابيه: "من الموروث الثقافي الجمعي المغاربي - منطقة عين
الصفراء نموذجاً" و "في التراث الشعبي للجنوب الغربي الجزائري")

The Cultural Heritage of the South-Western Algerian
Region by AbdelKader Khelifi

(A Reading in his two Books: "From the Cultural Heritage
of the Region of Ain Sefra " and "In the Popular Heritage of
South-Western Algeria")

د. خليفي سعيد*

Said Khelifi

المركز الجامعي أحمد زبانة بغليزان - الجزائر

University center of Ghilizane- Algeria

khsaid48@gmail.com

تاريخ النشر: 2020/03/15

تاريخ القبول: 2019/11/22

تاريخ الإرسال: 2019/09/07

ملخص البحث

انصبَّ جهد المؤلف الدكتور عبد القادر خليفي، في هذين الكتابين، حول رصد كثير من المظاهر الثقافية الشعبية الجمعية لمنطقة الجنوب الغربي الجزائري التي تتشابه فيها مظاهر الحياة اليومية في الأفراح والأتراح، وقد استعرض الكاتب نماذج من طقوس وممارسات شعبية، وبعضاً من فنون القول الشعبي، والتي ظلّ يرددها الصبيان في المناسبات الدينية والثقافية، كالمولد النبوي الشريف ومواسم الختان، ويردها الكبار للتبرك والتقرب إلى الله، كما يردد النساء مآثورات أخرى في مناسبات معينة تتناهن حالات شعورية تحركها الأفراح تارة، وتصنعها هموم الدنيا وظروف العيش الصعبة تارة أخرى... وقد حاول الكاتب، من خلال الكتابين، أن يبرز دور الموروث الشعبي في التعبير عن هموم وانشغالات الجماهير المقهورة، هذا الإرث الشعبي الخالد الذي ظل لفترة طويلة يحمل همّ هذه الأمة العريقة، أصبح اليوم قاب قوسين أو أدنى من الانطفاء والضياع، مما يفرض على المهتمين والمعنيين ضرورة البحث عن سبل ووسائل تقيه شرّ نوائب الدهر التي ألمت به، وبمقومات هذه الأمة التي صنعت مجدها ونصرها عبر الأزمان، والتي أصبحت مجرد ذكريات تنهاوى في عالم النسيان والاندثار...

* سعيد خليفي. khsaid48@gmail.com

الكلمات المفتاحية: العادات، التقاليد، صراع البقاء، الذاكرة الجماعية، الأسطورة، الفلكلور الشعبي

Abstract:

In these two books, Dr. AbdelKader Khelifi's effort focused on monitoring many of the popular cultural manifestations of the southwestern Algerian region, whose aspects of daily life are similar to the happy and sad moments. The popular saying, which has been repeated by boys in religious and cultural occasions, such as the glorified prophet's birth and the seasons of circumcision, and is repeated by adults to bless and approach God, as women too on certain occasions with emotional situations driven by happy moments sometimes, and sad moments driven by the concerns of the difficult living conditions at other times. The writer tried, through his two books, that highlight the role of the popular tradition to express their worries and concerns of the oppressed masses, which did not find a way to express it except the spoken word, especially in the colonial era, is now close to extinguishing and being lost. This imposes on those concerned people to search for ways and means to prevent the evil of the episodes of eternity that have befallen it, and the elements of this nation, which has made its glory and victory through time, and which have become mere memories falling apart in the world of oblivion and extinction...

Keywords: Customs, Traditions, Survival Struggle, Collective Memory, Myth, Folklore.



تمهيد

لا يمكن لأي أمة من الأمم أن تحقق التقدم والرقي الحضاري إلا بتفعيل مقومات بقائها واستشراف مستقبلها، فتراث الأمم وماضيها يشكل نقطة الانطلاق إلى الأمام بما يحمله من شحنات إيجابية تتجلي فوائدها في تقوية الصراع وتفعيله من أجل البقاء والاستمرار، لتحقيق الأفضل والأحسن، والتراث الشعبي الجزائري، كونه موروثا ثقافيا واجتماعيا وتاريخيا، يظل مقوما هاما من مقومات هذا الشعب ومعالم هويته، وهذا ما تطرق إليه الباحث الأستاذ الدكتور عبد القادر خليف في كتابه: "من الموروث الثقافي الجمعي المغاربي - منطقة عين الصفر نموذجاً" و"في التراث الشعبي للجنوب الغربي الجزائري" ..فما هي مظاهر الثقافة الشعبية في هذه المنطقة في ضوء ما جاء في محتوى الكتابين؟ وما الأبعاد الاجتماعية والنفسية والأخلاقية التي يمكن أن

تكون قد حققتها تلك العادات والتقاليد على الفرد والمجتمع؟؟ وإلى أي مدى يمكن أن نستلهم العبر والعظات من ماضيها وما يحمله من قيم إنسانية وحضارية لبناء حاضرنا ومستقبل أجيالنا، أم أن كل ذلك لا يعدو أن يكون مجرد حكايات تحكى وأساطير تترد للترويح عن النفس، وإشباع لحاجات وجدانية ونزوات إنسانية عابرة..؟؟

وقد كانت للكاتب الجزائري عبد القادر خليفي رؤية نقدية للموروث الثقافي الشعبي لمنطقة الجنوب الغربي الجزائري من خلال استعراض منهجي لكثير من مظاهر هذا الإرث اللامادي من المادة المعلوماتية التي جمعها في كتابين من الحجم المتوسط، مستلهما ما تحصل عليه من مصادر متنوعة ومتعددة :

الكتاب الأول:

من الموروث الثقافي الجمعي المغاربي (منطقة العين الصفراء نموذجاً) صدر عن دار الأديب للنشر والتوزيع بوهران سنة 2006 يتضمن مجموعة من الموضوعات والعناوين جاءت ضمن فصلين، فصل أول معنون بالحياة الشعبية في منطقة العين الصفراء، وفصل ثان عنوانه مواسم ومناسبات، فأما الفصل الأول فيندرج تحته خمسة عناوين :

أولا منطقة العين الصفراء ، الطبيعة والإنسان:

تحدث فيه عن موقع المنطقة ككل وهو الجنوب الغربي بالأطلس الصحراوي بسلسلة جبال القصور بالمحاذاة من الحدود المغربية إلى تخوم منطقة بشار جنوبا، متحدثا عن مناخها شبه القاري البارد شتاء الحار صيفا، مشيرا إلى نشاط أهالي هذه المناطق المتمثل أساسا في الرعي وتربية الماشية ومزاولة بعض النشاط الفلاحي، وتحدث في هذا المبحث أيضا عن عراقة الإنسان الذي استوطن هذه الأرض منذ أمد بعيد جدا، من خلال حديثه عن الصخور المنقوشة المتواجدة في هذه المناطق بكثرة والتي " تدل على تقدم إنسان المنطقة في عصور ما قبل التاريخ، والذي عبر عن أفكاره بتلك النقوش"¹، وجسد من خلالها نمط الحياة الذي كان سائدا في تلك العصور الغابرة..

ثانيا منطقة العين الصفراء والبناء الاجتماعي:

يبني النسيج الاجتماعي في هذه المناطق على نظام القبيلة، أو ما يتعارف عليه أهل تلك المناطق (بالعرش) أو (القلقة)، وهو نظام جماعي يخضع لقوانينه وأعرافه جميع أبناء العمومية تحت إمارة شيوخ القبيلة وأعيانها "اللبت في القضايا التي تم التجمع كحل النزاعات والتضامن لدفع

الدية أو الغرامة أو لمساعدة المنكوب منهم"²..، أما القبائل التي تعيش في هذه المناطق فهي كثيرة، ذكر الكتاب منها صنفين، صنف استوطن القرى أو ما يعرف بالقصور، وصنف من البدو الرحل الذين يعيشون عيشة التنقل والترحال بحثا عن الكأ ومنابع الماء...

ثالثا التجمعات الشعبية في المنطقة :

تتميز الحياة في هذه المناطق بشكل علم بكثرة التجمعات من أجل التعاون والتآزر حيث نجد المواسم التي تقام عن طريق الأعمال الجماعية، منها "التوزيع في البناء وحفر الآبار وحز أصواف الماشية والحصاد... وتصاحب هذه الأعمال أغان شعبية خاصة بكل عمل، إلا أن الغالب عليها هو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وحكاية مولده وتربيته، مما يساعد على الحركة السريعة والتنافس بين الأقران"³..، ومنها الأسواق الأسبوعية التي تعد فرصة للبيع والمتاجرة، وما تقام فيها من حركات وألعاب وحلقات للمداحين، بالإضافة إلى ذلك هناك المواسم الدينية السنوية، وأهمها الوعدة، وهي تجمع كبير للالتقاء وخاصة بين أبناء الجد الواحد، للشعور بالانتماء إلى السلالة ذات العدد الكبير والنسب الشريف، وذكر من هذه الوعدات، وعدة سيدي أحمد المجدوب ببلدية عسلة، ووعدة سيدي التاج ببلدية مغرار التحتاني، ووعدة سيدي بلال، ووعدة سيدي بوتخيل بوسط العين الصفراء... وهي مناسبات لإطعام الطعام، وذكر الله تعالى، وتلاوة القرآن، وإصلاح ذات البين.. وهناك تجمعات أخرى تقام في الأفراح والأتراح من أجل التعاون والإحساس بالتضامن والتكافل الاجتماعي ...

رابعا المعتقدات الشعبية في المنطقة:

تعد معتقدات منطقة الجنوب الغربي الجزائري متشابهة إلى حد ما، نظرا للدين والتاريخ المشترك لهؤلاء السكان، وتمثل الطرق الصوفية أهم معتقد ديني منتشر في تلك المناطق، حيث نجد القادرية والدرقاوية والكرزاية والطيبية والشيخية والتيجانية...⁴، ولكل واحدة من هذه الطرق الصوفية شيوخها ومريدوها وأورادها، وقد مثلت هذه المقومات سلطة معنوية كبيرة في الولاء والانصياع بما يعزز الوحدة والمصير المشترك.. أما في الوقت الراهن فقد رأى بعض الحدائين أنها مجرد بدع وخرافات كونها "خرجت، ومن سياقها التاريخي، وفقدت معناها، في عصرنا، ولم تعد قادرة على التعبير عن الإنسان الحديث، ولم يعد بإمكان الفنان، أو الأديب، أو المثقف شعبيا كان، أو برجوازيا أن يستخرجها، ويجدد فيها الحياة بما يتلاءم مع روح العصر الحديث"⁵، الذي

انتشرت فيه وسائل تختلف كل الاختلاف عما كانت تعرفه المجتمعات خلال العهود المنقضية، لكن هذا لا يعني أن أهل هذه المناطق قد تخلوا عنها كلية، بل إن الكثير منهم ظلوا أوفياء، وازدادوا تمسكا بما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من عادات وتقاليد راسخة..

خامسا رواية القصص الشعبي في المنطقة:

يدخل القصص الشعبي ضمن ما يعرف بالأدب الشعبي "ويراد به الأدب غير المكتوب والمتداول شفويا في أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات، فهو أدب نابع من الشعب ومتداول بين طبقاته المختلفة"⁶، ويتخذ الحكيم للقصص الشعبي في هذه المناطق طرقا وأشكالا، ويشغل مواطن ومواقيت معينة، أهمها البيت والحلي، أو المواسم والمناسبات، فأما البيت والحلي فيخص أفراد العائلة الواحدة أو الجيران والأتراب من شبان القبيلة الواحدة أو التجمع السكاني الواحد، ففي البيوت مثلا، غالبا ما تروي النسوة والجدات خصوصا، رواياتهم للأطفال على شكل حكايات خرافية، تبعث الغبطة والسرور والفرجة في نفوس هؤلاء الأطفال..، أما في المواسم فتمثلها حلقات المداحين في الأسواق والأعياد الدينية والوعود والمناسبات المختلفة، وتتضمن في الغالب بطولات المحاربين وبسالتهم وذكر مآثرهم في استحقاق الحق والبطش بالعدو، "وتذكر فيها حيوانات كالإبل والأغنام والذئب وغيرها، مما يدل على أن البادية لا تزال تحافظ على أكبر كمية من التراث الشعبي القصصي"⁷، والملاحظ أن هذه الحكايات ليست مجرد كلام يقال للترفيه وكسب المال فحسب، بل هو إرث معنوي زاخر بمختلف القيم الاجتماعية والثقافية والحضارية... لذلك وجب الحفاظ عليه والاهتمام به، وهو ما يحقق الحفاظ على هوية الأمة وذاكرتها.. "ويعني أيضا الحفاظ على المنتجات التي نستطيع من خلالها أن نقيس مستوى الحضارة لهذه الأمة أو تلك"⁸، وقد ظل هذا الإرث محفوظا في الذاكرة الجماعية للأمة الجزائرية عبر أزميتها المتعاقبة...

وأما الفصل الثاني المتعلق بالمواسم والمناسبات فيندرج تحته سبعة عناوين :

أولا: الماء وطقوسياته:

من المعلوم أن الماء مصدر الحياة، فحيث وجد الماء وجدت الحياة، وحيث فقدت الحياة، ومن هنا أخذ قدسيته ومكانته المحفوظة، وخاصة عند هؤلاء الأقوام وفي تلك المناطق السهلية الجبلية التي يندر فيها الماء إلا من بعض الينابيع والآبار القليلة وتجمعات مياه الأمطار الموسمية، ولكنها لا تلبث أن تجف، نظرا لمناخ المنطقة الحار والجاف في أغلب شهور السنة، ومن

هنا نجد أن العامة ينظرون إلى الماء نظرة تجميل واحترام وتقديس، فلذلك وجدنا أن المآثورات الشعبية والأغاني البدوية تمجد الماء وتنعت به بصفات الجمال والجلال "فهو غراس الغروس... وهو عتاق النفوس... وهو رواح العروس... وهو الخارج من الفردوس..."⁹، بالإضافة إلى أغان كثيرة لا يزال الأطفال والنسوة وحتى الرجال يرددونها تمجيذا للماء نظرا لأهميته وتوقف الحياة عليه، ذكر الكتاب منها أنشودة غنجة التي يرددوها الأطفال طلبا للسقيا حينما يقل الغيث من السماء ...

ثانيا: بعض أنواع التعوذ في المناطق الجنوبية:

يعد التعوذ سلوكا بشريا يلجأ إليه الإنسان حينما تواجهه لحظات الخوف، أو تدهامه الظواهر المرعبة ولا يجد وسيلة يدافع بها عن نفسه لرد هذا الطارئ، فيبادر إلى سلوك التعوذ وهو الاعتصام والالتجاء بمن يراه قادرا على دفع ذلك الخطر الداهم، ويختلف هذا السلوك من مجتمع لآخر حسب دينه ومعتقداته، وانطلاقا من أن سكان هذه المناطق من معتنقي الدين الإسلامي، فإن تعويذاتهم نابعة من مبادئ هذا الدين الحنيف، ولكن بأشكال متنوعة ومتعددة، وقد ذكر الكتاب بعضا منها، كتعويذات العقرب والأفعى ومختلف الحشرات السامة القاتلة، وتعويذات الحيوانات المفترسة كالنمر والأسد والضبع والذئب، إلى غير ذلك مما يجب الحذر منه والسعي لتجنب التعرض لضرره، " فالمستغيث يحيط نفسه بسور معنوي يقيه شر الجنة والناس، كأن آية الكرسي هي نفسها هذا السور"¹⁰، وقد كانت هذه التعويذات كلها مما شرعه الدين الإسلامي ووجه إليه...

ثالثا: احتفالات المولد النبوي الشريف في منطقة العين الصفراء:

من قبيل محبة هؤلاء الناس للنبي محمد صلى الله عليه وسلم واشتياقهم إليه، شأنهم شأن كل مسلم يتخذ من شخصه الكريم قدوة وأسوة حسنة، فإنهم دأبوا على الاحتفال بمولده صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر الكتاب تفصيلا في هذا الشأن، حيث ذكر أن الاحتفالات تبدأ منذ الفاتح من شهر ربيع الأول وتدوم إلى غاية تاريخ التاسع عشر منه، تتخللها هتافات وأهازيج لا تتوقف ليلا أو نهارا، وليلة المولد، أي ليلة الثاني عشر من هذا الشهر الهجري، يسهر الجميع ويحيون الليلة بالذكر وتلاوة القرآن، بينما ينشغل الأطفال بالمدائح، أما النساء فيحضرن أهم المأكولات والمشروبات الشعبية وتطلقن " الزغاريد المتواصلة إعلانا بيزوغ يوم المولد وكأنهن يزغردن لمولود حقيقي جديد " ¹¹، ويستمر الاحتفال إلى اليوم السابع من المولد حيث يتم ذبح العقيقة

وتسميته صلى الله عليه وسلم، وقد ساعد هذا كثيرا في ترسيخ حب النبي واتباع سنته لدى الأجيال المتعاقبة، بما لم يمكن المحتل الأجنبي من زعزعة وحدتهم أو المساس بقوة عقيدتهم.. كما كان له دور بارز من أجل "الإسهام في تربية المجتمع، وترهيف الذوق، وخدمة اللغة"¹²، من منطلق أن هذه الاحتفالات لم تكن مجرد سلوك فردي ترفيهي، بل هو عمل تابع عن وعي تام تحركه العقيدة الراسخة لحب الرسول صلى الله عليه وسلم..

رابعاً: الحصاد وأغانيه الشعبية في منطقة العين الصفراء:

من المعروف أن الحصاد عملية شاقة جدا، لذلك لجأ هؤلاء السكان إلى التعاون والتكاتف للقيام بالعملية ضمن العمل الجماعي المخصوص المسمى بالتوزيع، ويتم التنافس بين الحصادين والتباري فيمن تكون له الغلبة والسبق في حصد نصيبه، ويستعينون في ذلك بأغاني وأناشيد دينية حماسية يرددون خلالها التهليل والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر الكتاب نماذج كثيرة من هذه الأغاني والأهازيج¹³، وتحتوي هذه الأناشيد، إضافة إلى ما ذكرناه من تهليل وتحميد وصلاة على الرسول الكريم، تتضمن معاني وإرشادات ونصائح تهيئ العزيمة وتقوي الإرادة، من أجل الصبر وزيادة الجهد ومواصلة العمل...

خامساً: أغاني الجز:

ما إن ينقضي فصل الشتاء ويحل فصل الربيع حتى يحين موسم الجز، وهو عملية قطع أصواف الماشية، وهي عملية متعبة وشاقة، وتتم بالتعاون المنظم، حيث يجتمع الجزازون كل مرة عند أحدهم لجز ماشيته، ثم ينتقلون إلى الآخر، إلى أن يستوفوا كل الماشية، ويرافق هذه العملية سلوكيات وأناشيد ترفع الهمم وتقوي العزائم لدى الجزازين، وقد ذكر الكتاب عددا من القصائد الشعبية ذات المضمون المدائحي "ولهذه الأغاني إيقاعات وألحان محددة تحفظ لها الانتشار والسرعة والسهولة، وبما أنها جماعية فإن نصها لا يلبث دائما بل تصيبه التعديلات والإضافات عبر تنقلها وتواترها في الزمان والمكان"¹⁴..، وتبقى هذه العملية واحدة من العمليات الثابتة ذات البعد الثقافي والاجتماعي، التي تؤكد الترابط والوحدة والتمسك بالعمل الجماعي، الذي يظل سلوكا سائدا يؤكد الحياة الجماعية القائمة على التضامن والتعاون..

سادساً وسابعاً: عارفة وغنجة:

على التوالي وهما أنشودتان شعبيتان يرددنها الأطفال بشكل جماعي طلبا للبركات والخيرات، ويجسدان مظهران من مظاهر التضامن وتغليب الحياة الجماعية، فالأولى مترامنة مع الوقوف بعرفة وبالليالي العشر من شهر ذي الحجة المباركة، حيث يتم جمع الحبوب ومختلف المواد الغذائية من لحوم وخضر مما توفره البيوت، ويتم طهيته وتناوله جماعيا من قبل النسوة، خصوصا يوم العيد أو اليوم الذي بعده، والملاحظ أن أنشودة عارفة¹⁵، هي التي يرددنها البنات وهن يتحولن في بيوت الحي أثناء عملية الجمع ...

أما الثانية فهي تشبه الأولى من حيث عملية جمع الطعام وطهيته وتناوله، إلا أن الفرق بينهما هو أن غنجة يشترك فيها الأولاد والبنات من صغار السن ويرددون فيها أغان الاستسقاء وطلب الغيث خاصة عندما ينقطع المطر وتشح السماء، ولهذا العملية طقوسها ومظاهرها وتفسيراتها أيضا، فرغم أنها دعوات خالصة لله وطلب السقيا منه جل وعلا، إلا أن امتدادها الأمازيغي يظل سلوكا ضاربا في القدم لدى شعوب المغرب العربي حتى قبل مجيء الإسلام¹⁶، وقد أورد الكتاب هذه الأنشودة، وهي ابتهاج وانكسار بالدعاء الخالص لله سبحانه وتعالى وليس فيها مما يشير إلى غير ذلك من التوسل بغيره والاتجاء إلى من سواه..

الكتاب الثاني:

في التراث الشعبي للجنوب الغربي الجزائري، صدر عن دار القدس العربي بوههران سنة 2012 يتضمن مجموعة من الموضوعات والعناوين جاءت ضمن فصلين، فصل أول يتضمن بعض فنون القول الشعبية بهذه المنطقة، وفصل ثان عنوانه طقوس وممارسات شعبية، فأما الفصل الأول فيندرج تحته أربعة مباحث:

المبحث الأول: القصص الشعبي:

ويتناول هذا المبحث أساسا مختلف الحكايات التي يحتفظ بها كبار السن بالخصوص، وقد أشار الكتاب إلى أن منها ما هو مستمد من القصص القرآني والنبوي، باعتبار المرجعية الإسلامية التي يتبناها سكان هذه المناطق، ومنها ما هو مقتبس من الثقافة العربية القديمة، كقصص ألف ليلة وليلة، وكليمة ودمنة لابن المقفع، وقصة علقمة المشهورة، وملحمة عنتره، وبطولات السيد علي كرم الله وجهه، بالإضافة إلى " حكايات خرافية خيالية مرتبطة بمعتقدات عن حيوانات أسطورية أو عن عالم الجن والرواحين.."¹⁷، ومنها أيضا أسطورة الغولة ومغامرات حمو الحرايمي معها،

بالإضافة إلى حكايات كثيرة ذكرها الكتاب منسوبة إلى أبطال حقيقيين وغير حقيقيين، والملاحظ أن لهذه الحكايات أثر بالغ في مجالات شتى متعلقة أساسا بغرس قيم المروءة والشجاعة والكرم والبطولة والنبيل، من منطلق أن الفرد الجزائري يفكر بواسطة هذا التراث ومن خلاله، إذ يستمد منه رؤاه واستشرافاته مما يجعل التفكير في هذه الحالة لا يعدو أن يكون "تذكرا..ولذلك فحتى القارئ العربي عندما يقرأ نصًا من نصوص تراثه يقرأه متذكرا، لا مكتشفًا، ولا مستفهمًا"¹⁸، في حين يبقى هذا التذكر عاملا مهما في رسم مسار حياته وتوجيهها بما يحقق الانتماء إلى الوطن والأمة من خلال الروابط المعنوية التي قامت عليها المجتمعات منذ غابر العصور...

المبحث الثاني: الشعر الشعبي :

ينتشر الشعر الشعبي في هذه المناطق بشكل كبير، حيث نجد شعر المديح والتصوف في الصدارة، هذا النوع الذي يُعنى بقصائد تمدح خير الورى محمد، وتحدث عن فضل اتباعه والافتداء بسيرته العطرة، كما نجد شعر البطولة والتغني بالأعجاد وتسجيل الانتصارات، بالإضافة إلى الأغراض الأخرى كشعر الحكمة والثناء والغزل والشعر القصصي، وفي كل ذلك لا نجد الشاعر "يتناول الحدث بوصفه مستقلا قائما بذاته، أو بوصفه منجزا، إنما يتناوله بصفته حركة وسيرورة، أي بوصفه حدثا رمزا.."¹⁹، ولذلك كان الشعر الشعبي بهذه المناطق في مجمله انعكاسا لحياة الناس وصراعاتهم من أجل البقاء والاستمرار.

المبحث الثالث: الحكم والأمثال الشعبية :

من تجليات الموروث الشعبي في هذه المناطق، نجد الحكم والأمثال الشعبية، وهي أقوال تنبع من تراكم الخبرات وعصارة السنين، خاصة عند كبار السن ممن يمتلكون فطنة ونباهة فيصفون ما رأوه وعاشوه من محن أو منح على شكل مقطوعات شعرية متساوية، أو تراكيب لغوية قصيرة ذات وقع في النفس وتأثير في القلب، وقد تعددت أغراض هذه الحكم أيضا، ولكنها بقيت في حدود الواقع والتاريخ والعادات والتقاليد بما يسهل سبل العيش والتأقلم مع ظروف الحياة الصعبة التي يمرون بها، وقد أورد الكتاب نماذج كثيرة مما تزخر به المنطقة من الحكم والأمثال الشعبية المختلفة، منها ما يتعلق بالظواهر الطبيعية، ومنها ما يتحدث عن السنة وفصولها وشهورها وأيامها ومختلف أوقاتها، ومنها ما هو مرتبط بالدين ومختلف العبادات، ليختتم سياق الكتاب بإيراد مجموعة من الحكم والأمثال الشعبية التي تعالج قضايا اجتماعية وتاريخية وسياسية وفكرية وحضارية

متنوعة²⁰، لتبقى هذه الحكم وهذه الأمثال الشعبية لسانا يتكلم بالفائدة، بما تعبر عنه وتدعو إليه من خصال حميدة، تعين على تطويع الصعاب وتسهيل ضروب الحياة...

وأما الفصل الثاني المتعلق بالطقوس والممارسات الشعبية فيندرج تحته أربعة مباحث :

المبحث الأول : الرقص الشعبي :

يعد الرقص الشعبي شكلا من أشكال التعبير، ونجده في منطقة الجنوب الغربي يتخذ طابعا جماعيا، وخاصة في الأفراح وبعض المناسبات، ومن أنواع الرقصات السائدة إلى اليوم رقصة العلاوي، وهي خاصة بالرجال، تحركها أنغام القصبية أو الغايطة وإيقاعات الطبل (البندير)، وللإشارة هذه الرقصة لا تختص بما منطقة العين الصفراء وحدها بل " تشترك فيها كثير من مناطق الغرب الجزائري، في سعيدة وسيدي بلعباس ومعسكر وعين تموشنت وسبدو...²¹، وهناك رقصة الصف والحيدوس، ويشترك فيها الرجال وكذا النساء، ورقصة قرقابو، ويتزامن مع جل هذه الرقصات مقاطع غنائية جميلة تزيد من حماس الراقصين وانسجامهم... " ويمثل هذا الموروث عالما رجبًا من الذاكرة الجزائرية، لكونه يتكوّن من عالم متشابك من الموروث الحضاري، والمآثر السلوكية والقولية التي بقيت عبر التاريخ، وعبر الانتقال من بيئة إلى أخرى، ومن مكانٍ إلى آخر..وهي سلوكيات وأقوالٌ راسخةٌ إلى يوم الناس هذا في العقل والضمير العربيين بخاصة، ولا تُستثنى دولةٌ عربية في هذا²²، كما أنه يضمّ البقايا الأسطورية، للفولكلور المحلي في البيئات المختلفة سواء أكان الفولكلور القولي، أو الفولكلور النفعي، أو الفولكلور الممارس..

المبحث الثاني : المواسم الشعبية :

تعرف المنطقة مواسم كثيرة يتم فيها اللقاء والاجتماع من أجل التعارف أكثر وعقد الترابط والتآخي بين أفراد القبيلة الكبيرة وحل المشاكل والخلافات العالقة بينهم، وغالبا ما تكون سنوية مرتبطة بأماكن معينة وأزمنة معروفة، كأضرحة الصالحين، وهي ما يطلق عليه في العرف الجمعي بالوعدة، وهي مواسم للتجارة وعرض السلع المختلفة، وهي بالإضافة إلى ذلك فرصة للفرجة والتسلية " لما يجري في الموسم من احتفالات وفروسية وإطلاق للبارود، إلى جانب ما يصحب ذلك من حلقات للمداحين، وحلقات لبائعي الأدوية العشبية، وحتى بعض الألعاب السحرية.."²³، وقد ذكر الكتاب منها وعدة سيدي أحمد المجدوب ببلدية عسلة، ووعدة سيدي التاج ببلدية مفران التحتاني، ووعدة سيدي بلال التي يجيها الزنوج بمدينة العين الصفراء، ووعدة

سيدي بوتخيل بالقصر العتيق وسط العين الصفراء أيضا، ووعدة سيدي موسى ببلدية عين بن خليل وغيرها...

المبحث الثالث : الطرق الصوفية :

من المعروف أن الطرق الصوفية ذات منشأ ديني محض، ولكنها أخذت أشكالاً واتجاهات مختلفة نتيجة انغماس الناس في حياة البذخ والترف فظهرت في وقت سابق وانتشرت كدعوة لتبنيه الناس وردهم إلى مبادئ الدين الإسلامي السمحة التي تقوم على التواضع والزهد في الدنيا وترك كثير من ملذاتها وشهواتها، والملاحظ أن لهذه الطرق الصوفية مشايخ ومريدين وأتباع تقوم علاقتهم على أساس الولاء المطلق والمحبة الربانية، ولكل طريقة أوراها وأذكارها، ومن الطرق الصوفية المتواجدة بهذه المناطق كما ذكر صاحب الكتاب، الطريقة القادرية نسبة " إلى مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني دفين بغداد سنة 561هـ/1166م وهي أم الطرق الصوفية في الجزائر بلا منازع..."²⁴، والطريقة الشيخية المنتسبة لسيدي الشيخ عبد القادر بن محمد (ت1025هـ) بالمغرب الأقصى، والتي جدها الشيخ بوعمامة وأقام لها زاوية ببلدية مغرار التحتاني سنة 1875م، والتي انطلقت منها مقاومة الشيخ بوعمامة المعروفة، والطريقة الطيبية نسبة إلى أحد أقطابها سيدي الطيب بن محمد بن عبد الله الشريف مؤسس هذه الطريقة، والطريقة الزبانية، والطريقة الأحمديّة الكرزانية التي أسسها الشيخ أحمد بن موسى الحسيني المعروف بمولى كرزاز (ت1016هـ)، والطريقة الزروقية اليوسفية، والطريقة الدراوية، والطريقة التجانية....

المبحث الرابع : الفروسية :

لقد ظلت الفروسية وركوب الخيل مظهرا من مظاهر الزينة والأنفة، حيث نجد تلك المكانة المرموقة للجواد العربي الأصيل في نفسية الرجل العربي، فقد كان وسيلة من وسائل القتال وخوض المعارك، فلا يمتطيه إلا الفارس المغوار الذي لا يشق له غبار، ونجده في فترات السلم وسيلة للعب الفروسية، وخاصة في المناسبات كالأعراس والأعياد الدينية والوعدات، ولهذا المظاهر نسق خاص ونظام محكم يتبعه الفرسان بما يحدده قائدهم ويلزمهم به ضمن مجموعة منسجمة تعرف باسم (العلفة)، ويكون مرفوقا ذلك بإطلاق البارود عند نهاية المشوار..

ولهذه المظاهر وغيرها أبعاد اجتماعية وإنسانية عميقة عمق هذه الطقوس والممارسات في نفوس الأفراد والجماعات في هذه المناطق، " فهي عامل لربط الصلة بين أفراد القبيلة والعشيرة

وإبقاء لرابطة الدم بتلاحم أبنائها وهي من جهة أخرى وسيلة من وسائل صراع الإنسان مع المحيط الطبيعي والاجتماعي والتكيف معه من أجل البقاء واستمرار الحياة.²⁵ ، وبمرور الزمن وتوالي الخن "أضحت هذه العادات راسخة في نفوس الأجيال تتوارث جيل عن جيل، وشكلت تراثا شعبيا يشترك فيه عامة الناس، يطبع سلوكهم وأفعالهم وحياتهم اليومية ويؤثر فيهم فيصبحون مدافعين عنه بمختلف الوسائل لأنه يجسد ماضيهم وماضي أجدادهم"²⁶ ولذلك نجد الممارسات متأصلة في نفوس الناس وعقولهم، ولا تزال بعض مظاهرها قائمة إلا يومنا هذا..

خاتمة :

وفي الأخير يمكن القول إن الكاتب عبد القادر خليفي، ومن خلال كتابه هذين، قد بين أن الموروث الشعبي للأمة الجزائرية ليس مجرد عامل للترويج عن النفس وإشباع لحاجات وجدانية وإنسانية دفينه، إنما هو عامل لربط الصلة بين ماضي الأمة وحاضرها ورسم مستقبلها، كما يؤدي دورا مهما في تنشئة الفرد وبلورة شخصيته، بما يعكسه من التحام بين العقائد والقيم ونقلها من جيل إلى جيل، ونقل السلوك الحضاري التقليدي بما فيه من أنماط سلوكية متكررة، وتقوية المثل الأخلاقية والأعراف الاجتماعية، وهو من جهة أخرى وسيلة من وسائل صراع الإنسان مع المحيط الطبيعي والاجتماعي والتاريخي، والتكيف معه في كل الظروف من أجل البقاء والاستمرار، فهو مقوم هام من مقومات الشعب الجزائري ومعالم هويته ، إذ أنه كان الملمهم للإبداع خلال مختلف العصور، وبخاصة منها الفترة الاستعمارية الفرنسية التي فقدت فيها الثقافة الرسمية بفعل سياسة الهدم والإفناء الذي انتهجتها السلطات الاستعمارية طيلة تلك الفترة وما بعدها..

هوامش:

¹ عبد القادر خليفي، من الموروث الثقافي الجمعي المغاربي (منطقة العين الصفراء نموذجاً)، دار الأديب للنشر

والتوزيع، (د.ط)، وهران، الجزائر، 2006، ص11.

² م.ن، ص13.

³ م.ن، ص15.

⁴ ينظر، م.ن، ص19.

- 5 لويس عوض، ثقافتنا في مفترق الطرق، دار الآداب، (ط2)، بيروت، لبنان، 1983، ص57.
- 6 يسري عبد الغني عبد الله، الأدب الشعبي والأسطورة، مجلة عود الند، مجلة ثقافية فصلية، عدد 94، 2014، ص27.
- 7 لويس عوض، ثقافتنا في مفترق الطرق، ص26.
- 8 جمال عليان، الحفاظ على التراث الثقافي، سلسلة عالم المعرفة الكتاب/322، الكويت، ص60.
- 9 عبد القادر خليفي، من الموروث الثقافي، ص34.
- 10 م.ن، ص44.
- 11 م.ن، ص49.
- 12 أبو القاسم سعد الله، الشعر الشعبي الجزائري.. من الإصلاح إلى الثورة، (ط1)، دار مزوار، الوادي، الجزائر، ص04.
- 13 ينظر، عبد القادر خليفي، من الموروث الثقافي، ص59-60-61-62.
- 14 م.ن، ص66.
- 15 ينظر، م.ن، ص74.
- 16 ينظر، م.ن، ص87.
- 17 ينظر، عبد القادر خليفي، في التراث الشعبي للجنوب الغربي الجزائري، دار القدس العربي، (د.ط)، وهران، الجزائر، 2012، ص24.
- 18 محمد عابد الجابري، نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، (ط6)، 1993، ص22.
- 19 عبد القادر خليفي، في التراث الشعبي، ص38.
- 20 ينظر، م.ن، ص44 وما بعدها.
- 21 م.ن، ص83.
- 22 فاروق خورشيد، الموروث الشعبي، (ط1/1992)، دار الشروق، بيروت، لبنان، ص12.
- 23 عبد القادر خليفي، في التراث الشعبي، ص90.
- 24 م.ن، ص99.
- 25 م.ن، ص124.
- 26 بوشمة معاشو: سيدي غانم تراث وثقافة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2002، ص22.